جوانب من الحياة العلمية في المغرب الأوسط من خلال نوازل المازوني.

عيسى كروم*

مقدمة: يظل موضوع الحياة العلمية في المغرب الأوسط في العصر الوسيط من المواضيع التي لا زالت جوانب كثيرة منها مخفية لم يفصح عنها إلى في إشارات باهتة، بسبب سكوت كتب الحوليات عن هذا الجانب من حياة الناس، ويزداد الفراغ بصورة واضحة في الأرياف والبوادي، فالمعلومات عنها تكاد تكون شحيحة، ومن أجل سدّ هذا الفراغ تتجه أنظار الباحثين اليوم إلى ما يعرف بالمصادر الدفينة مثل الكتب الفقهية وبخاصة كتب النوازل منها قصد ملأ الثغرات المنسية في كتب التاريخ التقليدية، وما يميز مصنفات النوازل عن غيرها من المصادر أنها تحمل معلومات واقعية ومتنوعة شملت الجوانب الاقتصادية، والاجتماعية والثقافية عجزت عن ذكرها الحوليات، حيث أنها تنفرد بمعلومات بالغة الأهمية عن حياة الأفراد والجماعات، وهي تمثل سجلا حافلا بالقضايا الدقيقة لحياة الناس لم يشر إليها في الأنواع الأخرى من المصنفات؛ إلى جانب تميزها بالدقة والموضوعية على اعتبار أنها صادرة من جهة ليست لها منافع ذاتية .

لا سبيل إلى الشك في كون مدونة الدرر المكنونة في نوازل مازونة[1] للقاضي أبي زكريا يحي بن موسى المغيلي المازوني (ت883هـ)[2] تعد من أبرز وأجل كتب النوازل التي حملت قضاياها واقع المغرب الأوسط، بحكم أن أغلب الفتاوى الموجودة فيها انصب اهتمامها على الواقع العام للمغرب الأوسط، فمعظم المسائل الواردة فيها كان إما السائل أو المجيب أو كليهما من المغرب الأوسط، ومن جملة ما حملته مسائل الدرر في طياتها نصوص تتعلق بواقع التعليم في المغرب الأوسط؛ وعليه سنحاول في هذا البحث تتبع أهم ما جاء فيها من مظاهر و صور تعكس الحياة العلمية بالمغرب الأوسط، مع التركيز على ما انفردت به عن سائر المصادر الأخرى.

*طالب دكتوراه– شعبة التاريخ– كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري.

لقد شاع وتردد كثيرا أن حواضر المغرب الأوسط مثل بجاية، وتلمسان ومازونة كانت مراكز إشعاع علمي بارز، ونلمس ذلك بشكل خاص خلال العهد الزياني، وساهمت في ظهور علماء وفقهاء أجلاء قدموا إنتاجا أدبيا، وعلميا مازال إلى اليوم يحافظ على مكانته العلمية، إلى جانب ذلك تمكّن الباحثون من التعرف على طرائق التدريس وعلى مراحل التعليم بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط من خلال المصادر المختلفة، كما تم التعرف على العديد من المؤسسات التعليمية، والدور الذي لعبته في نشر العلم؛ لكن مازالت هناك قضايا كثيرة إما مجهولة أو ناقصة، وعليه سنطرح مجموعة من التساؤلات قد نجد لها جوابا في مسائل المازوني؛ ما هو واقع التعليم من خلال القضايا التي ناقشتها نوازل المازوني؟ ما دور الآباء في عملية التعليم؟ كيف يتم اختيار المعلم وما هو الأجر الذي كان يتقاضاه ؟ وما هي علاقة الآباء بالمعلم ؟

1– المؤسسات التعليمية بالمغرب الأوسط: كان التعليم في المغرب الأوسط شأنه شأن باقي أقاليم الغرب الإسلامي يتم في الكتاتيب[3] والزوايا، إلى أن ظهرت المدارس مع مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، فأصبحت تتكفل بالتعليم خصوصا التعليم العالي، وإلى غاية القرن العاشر كان في مدينة تلمسان وحدها خمس مدارس حسنة، وجيدة البناء شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس.[4] وتشير جل المصادر أن مدرسة ابني الإمام[5] هي أول مدرسة تم إنشاؤها في بلاد المغرب الأوسط على عهد السلطان الزياني أبو حمو الأول (707– 718هـ/ 1307– 1318م)،[6] ثم سار على منواله كل من السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن (718– 736هـ/1318–1335م) الذي بنى أهم مدرسة في تلمسان بجانب الجامع الأعظم حملت اسم المدرسة التاشفينية،[7] والسلطان أبو حمو موسى الثاني (760–791هـ/ 1359–1388م) صاحب المدرسة اليعقوبية التي بناها تكريما لوالده أبي يعقوب يوسف،[8] دون أن ننسى المدرستان المرينيتان اللتان شيدتا بعد سقوط تلمسان في يد السلاطين المرينين مثل مدرسة العباد– سيدي أبا مدين– التي مازالت قائمة إلى يومنا هذا.[9]

كانت المدارس تؤدي دورا هاما في بث العلوم سواء العلوم العقلية أو النقلية بمستوى عالي، فكان يقصدها الطلاب من داخل البلاد ومن خارجها، ومن أجل ذلك ألحقت بها مساكن لإيواء الطلبة القادمين من الأقاليم البعيدة، وكانت مجهزة بمكتبات تزخر بأنواع الكتب المحبسة عليها لمساعدة الطلبة في بحوثهم وتطوير معارفهم، وكانت الأحباس المصدر المالي الرئيس في دفع مرتبات

المدرسين والجرايات للطلبة؛ قال محمد بن عبد الله التنسي أثناء حديثه عن السلطان أبو حمو موسى الثاني "فلما كملت المدرسة، ...احتفلوا بها وأكثر عليها الأوقاف، ورتب فيها الجرايات..."[10].

ولم يُعرف عن سلاطين بني زيان أنهم شيدوا المدارس في غير العاصمة تلمسان، ففي مدينة مازونة كانت بها مدرستان كبيرتان[11] بنيت بمساهمة أهل البر والإحسان الذين تنافسوا على تشييدها، ويمكن استنتاج ذلك من خلال ما ورد في الدرر حيث أشارات إحدى نوازله "أن فقيها بنى مدرسة سكنها الطلبة وأقر العلم فيها ونجب من طلبته نجيبان فلما توفي الفقيه اختص بمدرسته أحد النجيبين ويقرأ فيها الطلبة ثم إن الطلبة ربما أحدثوا بين هذين النجيبين مناقشة فيما يظهر والله أعلم بالباطن فعمد الذي لم ينزل المدرسة إلى إحداث مدرسة أخرى"،[12] والظاهر من خلال النازلة أن المدرسة كانت محتوية على جميع الضروريات من سكن ومكتبة، كما يستنتج من ذات النازلة أنه تخرّج منها طلبة صاروا فيما بعد من معلميها، وكان المستوى العلمي فيها عاليا بدليل حدوث مناظرة بين طلبتها في علم الباطن،[13] لم تكن هذه المدرسة لوحدها بل أضيفت بالقرب منها مدرسة أخرى أحدثها أحدهم بعد المناقشة العلمية التي دارت بينهما، ولعل ذلك يرجع إلى التباين في اتجاهاتهما الفكرية فأراد بذلك الانفصال ليتسنى له التدريس في مدرسته لينافس بها المدرسة المجاورة؛[14] نلمس ذلك من خلال النازلة التي تقول "عمد أحدهم إلى دار تهدمت وكانت مشتملة على بيوت شتى لأناس شتى، وعلى بيت حبس على مسجد من مساجد بلده، واشتراها من أربابها على أن يبنيها مدرسة بإزاء المدرسة أخرى هنالك القديمة، وجل ما اشترى به هذه البيوت من صدقات أمراء العرب..."[15].

أما الزوايا والكتاتيب فقد حملت على عاتقها التعليم الأولي أو ما يعرف حاليا بالتعليم الابتدائي، حيث كان يتم في حجرات بسيطة يبنيها بعض المحسنين أو يتم كراؤها على أن يتم تسديد الكراء من طرف الأولياء أو من الأحباس، وبعض العلماء من اتخذ منزله مقرا يأتي إليه الطلاب ليلقي عليهم الدروس،[16] وفي إحدى نوازل المازوني أن رجلا بنى بيتا وجلب إليه معلما يدرس فيه أولاده وأولاد الزقاق حيث جاء نص النازلة "عن رجل كان بإزاء داره براح فبناه بيتا وكان يقول عند أخذه في بنائه أبني ها هنا بيتا يقرئ فيه المؤدب أولادي الصغار فبناه وأخذ مؤدبا لأولاده يقرؤون ربما انضاف إليهم بعض أولاد الزقاق".[17] وكان المنهج المتبع فيها أن يبدأ الصبي بتعلم القرآن الكريم والكتابة، ثم بعد ذلك بفترة قصيرة يضاف إليه حفظ بعض الأحاديث النبوية

قبل الانتقال إلى المدارس الكبرى، وقد أقر ذلك ابن خلدون في قوله "فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط..."[18].

غير أن المدارس الخاصة التي جاء على ذكرها المازوني كانت صغيرة ولم تكن قادرة على منافسة المدارس الكبيرة، حيث كانت تكتفي بمدرس واحد أحيانا فقط، ويتبين لنا ذلك مما جاء في النازلة السابقة أنه لما توفي الفقيه صاحب المدرسة اختص بمدرسته أحد الطلبة النجباء من يعلم فيها[19]؛ كما يتبين لنا من نازلة أخرى أن هذه المدارس لم تكن تتكون إلا من بيت واحدة، ويبدو أن المدارس الصغيرة لم عجزت عن الاستمرار في مهامها أمام المدارس الكبرى حيث هجرها الطلاب، فقد تحولت المدرسة السابقة الذكر مسكنا لطلبة العلم وتوقفت عن أداء مهامها التعليمية، ثم تعطل البيت بعد أن أُحدث في البلد مدرستان بحسب ما جاء في النازلة: "...بقي البيت معطلا بعد الآن ربما ورد بعض الطلبة على الولد[20] ولا يجدون مسكنا فيطلبونه فيعطيهم إياه ويقرؤون فيه إلى أن يسافروا فيبقى أيضا معطلا إلى أن يرد بعض الطلبة وهكذا وزمن تعطيله إلى عمارته فلما مات الرجل صار الولد يصنع فيه كصنع إلى أن أحدث في البلد مدرستان فصار كل من يريد برسم القراءة يسكن المدارس[21] ولا يطلب هذا البيت إلا في النادر[22].

وأما بالنسبة لمصادر تمويل بناء المدارس فكانت متنوعة، فقد اعتمد أحدهم في بناء مدرسة على الصدقات من المحسنين، فحسب ما جاء به المازوني أن رجلا اشترى دارا تتكون من عدة بيوت مهدمة حوّلها إلى مدرسة، بعد ترميمها بمساعدة المحسنين الذين تسابقوا في الإنفاق عليها عندما سمعوا منه بأنه يبني مدرسة ليتعلم فيها أولاد أهل البلدة [23]. هذه النازلة لا تبين المصادر المالية لبناء المدارس فحسب بل تثبت أيضا اهتمام الناس وتعلقهم بالعلم والسعي إلى الإنفاق في سبيل نشره، وربما الهدف منه أيضا هو الحصول على الأجر والثواب إذ يعتبر هذا العمل من الصدقات الجارية.

2- **استئجار المعلم للصبيان:** كانت مهمة تعليم الصبيان في المرحلة الأولى تقع على عاتق الأولياء، فكان من واجبهم تدبير بيت وجلب معلم من داخل البلدة أو من خارجها، مع التكفل بجميع المصاريف من أجرة المعلم وكراء البيت؛ وأشاد الفقهاء بالثواب الذي يناله الآباء مقابل تعليم أبنائهم القرآن حيث جعلوا أجر ذلك أعظم من الحج والرباط والجهاد،[24] فكان الآباء يحرصون على تعليم الصبيان في الصغر مبادئ الكتابة والقرآن الكريم، حيث ورد عند أبي يحي موسى بن

عيسى المازوني[25] في مصنفه "المهذب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق" على جواز إجارة المعلم على تعليم الكتابة أو على الكتابة مع القرآن[26]؛ وهي من أساسيات التعليم الابتدائي عندهم، وقد أشار عبد الرحمن ابن خلدون إلى أهمية تعليم الصبيان القرآن في الصغر بقوله "وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات؛ وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده."[27]

وفي هذا الإطار أفادنا المازوني في نوازله بمجموعة من المسائل تتعلق بإيجار مؤدب الصبيان، وفي نفس الوقت تبين لنا مدى اهتمام الآباء وعنايتهم الشديدة على تعليم أبنائهم، ويظهر ذلك من خلال ما جاء في بعض العقود التي أبرمت بين الإباء والمعلمين، منها نازلة سئل فيها الإمام أبو الفضل العقباني[28] "عن قوم أخذوا معلما يقرأ عنه في البادية أولادهم بالعام فاشترط عليهم فقال لهم إن افترقتم علي قبل انقضاء الأجل فإني آخذ أجرتي تامة ثم أنه أقام عندهم يقرئ ثمانية أشهر فأخذهم الهول فافترقوا عليه فانتظرهم حتى رجعوا فرجع إليهم فأقرأهم شهرا فجفلوا (كذا) ثانية فطلب أجره تاما فقالوا له حتى تتم ما بقي لك".[29] وكانت العقود تحمل ما اتفق عليه الطرفان من الشروط الواجبة على كل طرف، ولعل أهم الشروط التي لم يكن أي عقد يخلو منها هي مقدار الأجرة وشكلها ومدة الإيجار، وعدد الأولاد الذين يقرؤون عند المعلم؛[30] فقد جاء في إحدى النوازل "سئل بعض فقهاء بلادنا عن أناس اتفقوا مع معلم لأولادهم بأربعين شاة عن ستة عشر ولدا فحضر ثمانية وغاب الباقون لم يعرفوا ولم يتفاهموا عليه ثم قدم شخص فالتزم لهم خمسة من الغنم هل الإجارة صحيحة أم فاسدة وهل الفساد عليهم وعلى الداخل أم لا.[31] إلى جانب هذا كان العقد أيضا ينص على مدة الإيجار إما مشاهرة أو مسانهة فقد ألمحت إحدى النوازل إلى استئجار معلم لمدة سنة،[32] وهناك إشارات على وجود عقود إجارة المعلم مشاهرة ومسانهة حسب ما ورد في المهذب الرائق السالف الذكر " لا بأس بالإجارة على تعليم القرآن كل سنة أو كل شهر بكذا أو على الحذاق للقرآن بكذا ".[33] ولكن الغالب على عادتهم أن استئجار المعلم كان لمدة سنة، وعلى جزء معين يحفظه المتعلم، ففي المهذب دائما ورد فيه "لا بأس أن يشارطه على تعليم القرآن كله أو نصفه، بشيء معلوم"[34]

3– طبيعة أجرة معلم الصبيان: من القضايا التي أثيرت حول مسألة أجرة من يمتهن التعليم ما ورد على الفقيه العقباني عن أناس يسألون فيها عن أجرة المعلم، فجاءت فتواه بجواز إجارة المعلم

كي لا يشغلهم طلب المعيشة عن التعليم؛ وفي ذات النازلة أفتى بعدم طلب الإذن من شيخه فالتعليم لا يحتاج إلى إجازة؛[35] ويعتقد أن الاستغناء عن الإجازة كان بخصوص تعليم الصبيان للقرآن الكريم، بينما كان الأمر مختلف في التعليم العالي لأن بعضهم يشترط الإجازة لتعليم وتدريس كتاب معين لأحد العلماء.

ولما كان الغصب شائعا من طرف الأعراب في كثير من قرى المغرب الأوسط، وكانت مدينة مازونة من بين القرى التي هيمن الأعراب عليها وقد أشار المازوني إلى ذلك في قوله "... وذلك أن قريتنا كما تعلم مملوكون، أو شبه المملوكين لأمراء العرب، يأتي الأمير لدار الحضري ويدخل بلا إذن كأنه دخل ملكه ..."[36] كان هؤلاء الأعراب أيضا يهتمون بتعليم أبنائهم ويجلبون لهم معلما، فلم يمنع الفقهاء تعليمهم مقابل الأجرة، فقد جاء نص في الدرر بجواز تعليم القرآن لأولاد الغصاب، وأشياخ الرعايا بأجرة؛[37] وهذا يدل على حرص الأمة على بث العلم في الصبيان ولاسيما تحفيظ القرآن الكريم، دون النظر إلى ما يقترفه الآباء من مخالفات قانونية وشرعية.

وأما بالنسبة لقيمة الأجرة ومقدارها فكانت تختلف من مكان إلى آخر، ومن فترة إلى أخرى، كما أنها كانت تختلف من الأرياف إلى المدينة، فإذا كانت الأجرة في المدينة بالنقود فإن الأمر لم يكن كذلك تماما في الأرياف، حيث اعتمد الناس في الأرياف والبوادي على تأجير المعلم من غالب ما ينتجون من غلات زراعية أو حيوانية.

لقد زودتنا نوازل المازوني بعدة مسائل أفصحت عن عقود ذكرت لنا أنواعا من الغلات، كان يقبضها المعلم مقابل أجرته في تعليم عدد معين من الأولاد مقابل نوع من الأجرة مثل عدد من الغنم.[38] ويبدو أن الأجرة بغير النقود كانت منتشرة بشكل واسع خارج الحواضر الكبرى، كما أنها لم تكن خاصة بمعلم القرآن الكريم فقط، ففي نازلة أخرى تقول أنهم تعاقدوا مع إمام بزرع زمن الصيف بكيل معلوم؛[39] وذُكر في المعيار أن أهل قرية استأجروا إماما للصلاة على من تجب عليه الصلاة بطعام.[40] ويبدو أن الأجرة في البوادي كانت على هذا النحو عند أغلب الأجراء، ونلحظ هذا الأمر من إشارة وردت في إحدى النوازل سئل فيها الفقيه عبد الرحمن الوغليسي[41] "عن أجير بأجرة أهل البادية "[42] فإذا تأملنا العبارة فإنها تثبت شيوع الأجرة بغير النقود عند أهل الأرياف والبوادي، ويعزى ذلك حسب ابن خلدون إلى افتقارهم إلى النقود، حيث يقول "فالنقود والدراهم في هذه المناطق مفقودة".[43]

كما كان هناك نوع آخر من الأجرة يقدمه الآباء مقابل تعليم أبنائهم، وخاصة فئة المعوزين والفقراء، حيث لم يكن لديهم ما يقدمونه من غلات زراعية أو حيوانية لعدم امتلاكهم للأراضي الفلاحية، أو أي نوع من المواشي فكانوا يقدمون خدمات تطوعية لصالح الإمام، أو المعلم بدلا من تقديم غلة أو محصول زراعي،كالتطوع لحرث الأرض المحبسة على المساجد، أو يعصرون زيتونها، وكرومها أو رعي مواشيه لمدة معينة بالتناوب فيما بينهم، وهذا دليل آخر على حرص الأولياء الشديد على تعليم الأبناء والعناية بهم وخاصة تحفيظ القرآن الكريم، ورغم ذلك كان منهم من ليست له القدرة على أي نوع من أنواع الأجرة، ومادام الآباء ملزمون بالتكفل بأبنائهم وتربيتهم وتعليمهم وتكوينهم للحياة المستقبلية، كانوا يوجّهونهم للحرفة أو الصنعة عوض التحصيل العلمي بسبب الحاجة والخصاصة.[44]

وقد وجدنا بعضا من الناس في القرى يمتنعون عن تخصيص معلم لأبنائه[45]، وفي هذا الإطار أفتى الفقهاء بإجبارهم على أخذ معلم لأولادهم، وقد كان الكثير من الناس لا يقدرون على ذلك إما لعدم وجود مكان أو لعدم قدرتهم على أجرته، وأحيانا لقلة عدد الصبيان، ما يجعلهم يأخذون أبناءهم إلى القرى المجاورة التي يكون بها معلم، ولكن هذا الحل كان يخلق في بعض الأحيان خلافات بينهم وبين أهل القرية المستقبلة، حول ضرورة المشاركة في أجرة المعلم، ففي هذا المنحى ورد في إحدى نوازل المازوني أن أناسا من أهل قرية أخذوا معلما لأولادهم، وفي نفس الوقت يقوم بالإمامة، والأذان بالمسجد ودخل معهم أهل قرية صغيرة مجاورة لهم لتعليم أولادهم، لعدم قدرتهم على أخذ معلم خاص لأبنائهم، فطالبهم أهل القرية المستقبلة بإعطاء الأجرة لمن له ولد عن ولده ومن ليس له ولد عن تعمير المسجد،[46] فرفض من ليس له ولد إعطاء الأجرة على اعتبار أن القرية بعيدة عنهم ولا يؤدون الصلاة فيها.

4– ظاهرة خميس الطالب بين الأجرة والجعل[47]: من أهم المعلومات الهامة حول علاقة أولياء الأطفال بالمعلم والتي ذكرها المازوني في الدرر المكنونة، وهي ظاهرة "خميس الطالب"، وهي نوع من الأعطيات كانت منتشرة بشكل واسع في معظم بلاد المغرب الأوسط، وهذه الظاهرة كانت تمس أجراء بعينهم ولا نجازف إن قلنا كانت مخصصة لمعلمي القرآن الكريم بدرجة كبيرة، وكان يجري بها العمل بشكل لافت للانتباه في البوادي والأرياف، وظل الناس يمارسونها حتى تحولت إلى عرف من الصعب التخلي عنها، ولا نعرف متى ظهرت ولكنها كانت موجودة طيلة الفترة الزيانية واستمرت

إلى سنوات السبعينيات من القرن العشرين ميلادي. فما المقصود بخميس الطالب؟ وما موقف الفقهاء من هذه الظاهرة؟ وهل كانت إلزامية أم اختيارية؟

إن المقصود بالخميس هنا هو يوم الخميس، والطالب يقصد به معلم القرآن إذ درج أهل البوادي على تسمية معلم القرآن عندهم بالطالب، فقد كانت جميع أسر أهل القرية الواحدة، أو المنطقة الواحدة عندما يتفقون مع معلم ليدرس أبناءهم كانوا يخصصوا له نصيبا معلوما مما ينتجون يعطونه له في يوم معين من أيام الأسبوع، والغالب كان يوم كل خميس، هذا دون الأجرة المتفق عليها في الشرط، وكان يعطيها جميع أهل القرية ممن له ولد يقرأ أو ممن ليس له ولد، حيث أنها تصبح واجبة وكان الجميع يلتزم بها دون تردد أو نقاش وكأنها فرض عين، ويبدو أن نوع الجعل ومقداره كان يختلف من قرية إلى أخرى، ومن موسم إلى آخر فإذا كان موسم الحصاد كان الجعل من الحبوب، وإذا كان الربيع كان من الزبد، ونظرا لأهمية الموضوع نورد النازلة التي تضمنت الظاهرة كاملة؛ فقد سئل أبو الفضل العقباني[48] عمّا يأخذه المعلم من الزبد في البادية في فصل الربيع يجعلون له مخضة زبد عن كل من بيوت الحلة، على من عنده الولد وعن من لا ولد له يسمونه خميس الطالب هل يسوغ له ذلك أم لا؟[49] فكان جوابه ما يأخذه المعلم ممن لا ولد له من الزبد سائغ له إن قصد المعطي التبرك.

فمن خلال النازلة يمكن أن نستخلص أن معلم القرآن كان يعطى له في يوم معلوم– الشائع يوم الخميس– نوع من الغلة الزراعية أو الحيوانية، ويبدو أنه كان من غالب ما ينتج أهل البلد، وعليه فمن الممكن أنه كان يتغير بحسب المواسم، وكانت واجبة على جميع أهل القرية، أو البلد الواحد ورأى فيه الفقهاء أنها تبرعا من له ولد يقرأ، وتبركا ممن ليس له ولد يقرأ. ولكن لماذا اختيار يوم الخميس بالذات دون سائر الأيام الأخرى ؟ وهل هي جزء من الأجرة أم أنها تعطى فضلا عنها؟ وماذا يفعل الطالب بها ولاسيما إذا جمع كمية كبيرة من نفس الغلة؟

الراجح أن اختيار يوم الخميس الأصل فيه يرجع إلى العادة التي درج على تطبيقها معلمو القرآن الكريم، حيث أنهم كانوا يخصصون يوما معلوما من أيام الأسبوع يعرض فيه الصبيان ما حفظوه من القرآن، وكان يوم الخميس هو اليوم المحبب من طرف معظم المعلمين باعتباره آخر يوم في الأسبوع، فقد أوصى القابسي بأن " يجعل لعرض القرآن يوما معلوما، مثل عشية يوم الأربعاء ويوم الخميس"[50] وكان هذا اليوم أيضا يمثل نهاية الأسبوع حيث تتعطل الدراسة إلى يوم السبت.[51]

وعن علاقتها بالأجرة فمن خلال عبارة "يجعلون له"[52] يتبين لنا أنها ليست أجرة وإنما هي جُعالة، وهي تختلف عن الأجرة؛ فالجُعالة في الاصطلاح الفقهي تعني التزام عوض معلوم على عمل معين معلوم أو مجهول يعسر ضبطه؛[53]كما جاء في نص النازلة " يعطيها من له ولد ومن ليس له ولد"، إذن هذه العبارة توضح بأنها أعطية وليست أجرة، فالذي ليس له ولد غير معني بالأجرة ولكنه مشارك في " خميس الطالب "، وجاء في جواب النازلة بجواز إعطائها تبركا لمن ليس له ولد يقرأ وتبرعا لمن كان له ولد يقرأ.[54]

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن هذه الأعطية يختلف نوعها بحسب المحصول الأكثر إنتاجا عند أهل القرية، أو المنطقة فقد يكون من الزروع، أو من الزبد أو من البيض أو الصوف، ومن الضروري أنهم كانوا يستبعدون كل ما هو قابل للتلف مع الزمن مثل الحليب أو اللحوم أو ما شابه ذلك؛ والظاهر أن معلم القرآن كان يتحصل على كمية كبيرة من نفس الغلة، ومن غير المعقول أن يستهلكها كلها، فماذا كان يفعل بهذه الكمية الكبيرة التي جمعها؟

لم نجد في المصادر التاريخية إجابة على هذا التساؤل، ولكن مادامت هذه الظاهرة بقيت إلى وقت قريب كما أسلفنا، فقد وجدنا كثير من الناس ممن عايش الظاهرة فسألنهم عنها،[55] وخلصنا إلى أن العرف الذي كان سائدا آنذاك، هو أن معلم القرآن كان يختار تلميذا يتولى توزيع بعض المهام الخاصة بالطالب (المعلم) على بقية التلاميذ بالتناوب، ومن بين هذه المهام كانوا يتناوبون على رعي ماشية المعلم إن كانت له ماشية، وبعضهم توكل له مهمة ببيع ما يتحصل عليه الطالب يوم الخميس، وغير ذلك من المهام لصالح المعلم، من أجل التفرغ للتعليم ولا ينشغل بمهام أخرى.

5– نماذج من الخلافات بين الأولياء والمعلمين: على الرغم من العقد الذي كان يبرم بين أولياء الأبناء من جهة والمعلم من جهة ثانية، إلا أن ذلك لم يمنع من نشوب خلافات بسبب ظهور بعض المشاكل لم تكن متوقعة عند إبرام العقد، ومن أجل المحافظة على حقوق الطرفين كانوا يتوجهون إلى الفقهاء، وأهل العلم لحل تلك النزاعات بالتراضي بينهما؛ ومنها على سبيل المثال ظاهرة كانت كثيرة الوقوع في البوادي، وهي أن بعض الأولياء يرتحلون من مقر سكناهم إلى موضع آخر بعيد عن المعلم قبل انقضاء المدة المتفق عليها، فيطلب المعلم أجرته كاملة في حين يمتنع الآباء عن أدائها بحجة توقف الصبي عن الدراسة؛[56] وفي هذا الشأن نبه الفقهاء إلى ضرورة تمكين المعلم من أجرته، حيث أشار أبو يحي موسى المازوني إلى ذلك في قوله "ليس لولي الصبي إخراجه عن

المعلم قبل تمام المدة المشترطة، إلا أن يرجع إليه جميع الأجرة هذا إذا لم يظهر من المعلم تفريط فيخاف الأب على ابنه الضياع، ولا باس أن ينبه على ذلك" ولكن الفقهاء ميزوا بين حالات التخيير وحالات القهر، فإنه لاشيء من الأجرة للمعلم في حالات القهر كالرحيل بسبب الخوف على سبيل المثال.[57]

وخلاف آخر أيضا كان كثير الوقوع وهو وصول الطفل في الحفظ إلى الحذقة،[58] حيث يسكت عنها الطرفان عند المشارطة، ولما يحذق الصبي يطلب المعلم حق أجرة وصول الإبن الحذقة، فيأبى الآباء بحجة أنها لم تكن من ضمن الشروط، فحين كان المعلم يرى عدم إسقاطها في الشروط يدل على حكمها بالعادة المتعارف عليها في البلد وهذا ما كان يفتي به الفقهاء، على حسب ما جاء في مسائل المازوني " عن المؤدب يقرئ الأولاد بأجرة جائزة لكنه لم يشترط الحذقات على الآباء ولا ذكروها هم أيضا فوقع السكت من الفريقين فوصل بعض الأطفال لسورة يسرا وغيرها من الحذقات فطلبها المعلم من والد الطفل فأبى وقال لم يقع بيننا عليها شرط وقال المعلم وأنت لم تشترط علي سقوطها".[59] حيث جرت العادة عندهم أن محل الحذقة أن يصل الصبي إلى حفظ سور من القرآن الكريم مثل"الم يكن" و"عم" و"تبارك" و"الفتح" و"الصافات"؛ وجعل ابن عرفة "الفاتحة" حذقة بحسب عرفهم.[60] ومن الخلافات الأخرى كان الصبي يقرأ عند مؤدب ثم يكمل حفظه عند آخر فيطالبه كل مؤدب بحقه في الحذق، وقد أفتى الفقهاء بأن يأخذ بقدر ما حفظ الصبي، وإن جاوز الصبي النصف قسمت الحذقة بين المؤدبين.[61] وشكلت ظاهرة هروب الصبي من الكتاتيب سببا من أسباب الخلافات بين المؤدب والأولياء، فكثيرا ما كان يتهرب الأطفال من المدرسة ويتوقفون عن الاستمرار في التعلم، فيطالب المعلم بأخذ الأجرة كاملة على حسب الاتفاق، لأنه لم يكن سببا في هروب الابن أو توقفه، لكن بعض الآباء كانوا يمتنعون عن دفع الأجرة وبعضهم كان يعطيها بحسب ما قرأ الولد.[62]

ومن الخلافات التي سجلها المازوني وقوع مشاجرات أحدهم مع المعلم تؤدي إلى توقف المعلم عن مواصلة التعليم، وقد جاء في مسألة سئل فيها الإمام سعيد العقباني نصها "أن مؤدبا اتفق مع أقوام لتعليم أولادهم مدة معلومة وبأجرة مسماة فأقرأهم نصف المدة فوقعت بينه وبين بعضهم مشاجرة يسبوه فعز عليه ذلك فحلف أن لا يتم المدة عندهم فطلب نصف أجرته فأبوا أن

يخلصوه"؛[63] يظهر أن الخلاف حاصل حول إتمام المدة من عدمها وليس في الأجرة فهو طالبهم بنصف الأجرة على حسب ما أقرأهم بينما هم رفضوا إلى أن يتم المدة المتفق عليها.

لقد عكست لنا هذه الخلافات الناشئة بين المعلم والأولياء جانب من واقع التعليم في المرحلة الابتدائية وخاصة في القرى، ودور الفقهاء في حل هذه النزاعات وفق ضوابط عرفية وشرعية، كما تبين لنا حرص الأولياء على مدى عنايتهم بتعليم أبنائهم رغم التحديات والصعوبات التي كانوا يواجهونها لاسيما المناطق النائية.

خاتمة: يستفاد من قراءات مسائل المازوني حول القضايا المتعلقة بالحياة العلمية، الرغبة الشديدة لدى عامة الناس بتعليم أبنائهم في الصغر خاصة حفظ القرآن الكريم، وكانت عملية التعليم تتم في بيوت خاصة، يتبرع بها أحد المحسنين أو يتم تأجيرها من طرف الآباء؛ كما أن التعليم في مرحلته الأولى كان من واجب الآباء الذين كانوا ملزمين بالبحث عن معلم يعقدون معه اتفاقا يخص الأجرة مقابل عدد من المتعلمين. إلى جانب الأجرة التي كانت من حقوق المعلم، كان هذا الأخير يستفيد من الهدايا ومن الأعطيات كانت تخصص له مرة واحدة في الأسبوع سميت خميس الطالب. لم يخف علينا المازوني بعضا من انشغالات الآباء حول أبنائهم، وبعض القضايا والخلافات التي كانت تقع بينهم وبين المعلم فيرفعونها إلى الفقهاء لحلها. وتَبَيَّن لنا عدم تدخل الدولة في شؤون التعليم الابتدائي سواء من حيث المنهج الدراسي، أو من حيث تمويله بل ظل طيلة الفترة الوسطى يسير على ما اعتاد عليه الناس وعلى العرف السائد عندهم.

الهوامش:

1- توجد عدة نسخ منه مخطوطا في عدة أماكن داخل الوطن وخارجه نذكر من بينها مكتبة خزانة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بأدرار، خزانة الشيخ الحسيني بميلة، وخزانة الشيخ البوزيدي بباتنة، وخزانة الشيخ المهدي البوعبلي ببطيوة بوهران، وفي المكتبة الوطنية بالجزائر، ومكتبة جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، والخزانة العامة بالرباط، وبالمسجد النبوي الشريف، وبالجامعة الإسلامية بالسعودية، وقد تم تحقيق المدونة من طرف الدكتور حساني مختار، ثم مؤخرا يتم تحقيقه من طرف الدكتور ماحي قندوز وقد تم طبع جزأين منه.

2- أبو زكريا يحي بن أبي عمران بن موسى بن عيسى المغيلي المازوني (ت 883هـ) ينتسب إلى قبيلة مغيلة، ويلقب بالمازوني نسبة إلى بلد مازونة، حيث ولد فيه ونشأ فيها وامتهن القضاء فيها، من شيوخه قاسم بن سعيد العقباني، محمد بن مرزوق الحفيد، ابن زاغو التلمساني، ووالده أبو عمران ومن تلامذته احمد الونشريسي، وله مؤلف بالإضافة إلى الدرر كتاب في الفقه يسمى اللمع في الفقه (أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989، ص 637)

3- الكُتَّاب موضع تعليم القرآن، وفي الأساس تطلق على الصبيان لا المكان، (الزبيدي محمد مرتضى، تاج العروس، ج4، تحقيق عبد الحليم الطحاوي، مطبعة حكومة الكويت، ط2، الكويت، 1987، ص104)

4– حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار لغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1983، ص19

5– سميت باسم العالمان عبد الرحمن بن محمد المكنى أبو زيد، وأخوه عيسى بن محمد المكنى أبو موسى أصلهما من برشك استقدمهما السلطان أبو حمو الزياني إلى مدينة تلمسان فأكرمهما وبنى لهما مدرسة حملت اسمهما سنة 710هـ؛ (أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، صص245–291)

6– هو أبو حمو موسى الأول تولى حكم الدولة الزيانية بعد خروج المرينين من تلمسان وكانت نهايته بعد اغتياله من طرف ابنه عبد الرحمن بن تاشفين (محمد بن عبد الله التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص1985، ص139)

7– نفسه، ص141---8– يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ج2، ص133.

9–وهما مدرسة العباد التي بناها السلطان المريني أبو الحسن، (محمد بن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، موفم للنشر، الجزائر، 2011، ص406)---10– محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص180

11– الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي، للعيار المعرب و الجامع للمغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس وللمغرب، ج 7، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1981م، ص242

12– أبو زكريا يحي بن موسى المغيلي المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، مخطوط ، مكتبة جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، رقم الجرد 827، ورقة 245و---13– نفس المصدر والورقة---14– نفس المصدر والورقة---15– أبو زكرياء يحي المازوني، ورقة 245و

16– أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط3، بيروت، لبنان، 1979، ص73---17– أبو زكرياء يحي المازوني، ورقة 246ظ

18– عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق أحمد الزعبي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009،ص، ص614

19– أبو زكريا يحي المازوني، المصدر السابق، ورقة 245 و---20– في نسخة المكتبة الوطنية "على البلد" وليس على الولد كما جاء في النسخة المعتمدة ربما تكون هي الصحيحة---21– في نسخة للمكتبة الوطنية للمدرستين.--- 22– نفسه، ورقة 246 ظ---23– الونشريسي، للعيار، ج7، ص242

24– الونشريسي، للعيار، ج8، ص 250---25– موسى بن يحي بن عيسى المازوني المغيلي قاضي مازونة و صفه بعضهم: بالفقيه الأجل المدرس المحقق القاضي الأكمل و هو والد صاحب الدرر المكونة في نوازل مازونة؛ (أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص605)

26– أبو يحي موسى بن عيسى المغيلي المازوني، للمهذب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق، مخطوط، متحف قسنطينة، رقم الجرد 14، ورقة 311و---27– عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ص614

28– سعيد بن محمد بن محمد بن محمد العقباني الإمام الفقيه التلمساني تولى القضاء لمدة أربعين سنة، قاضي الجماعة في بجاية، و تلمسان، وسلا، ومراكش، توفي سنة 811هـ؛ (احمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص 189.--- 29– أبو زكريا يحي المازوني، ورقة 239ظ---30– الونشريسي، للعيار، ج8، ص 240.--- 31– أبو زكريا يحي المازوني، المصدر السابق، ورقة 240 و---32– نفسه، ورقة 239ظ.---33– أبو عمران موسى المازوني، المهذب، ورقة 311و---34– نفس المصدر والورقة

35– أبو زكريا يحي المازوني، المصدر لسابق، ورقة 242ظ؛ الونشريسي، للعيار، ج8 ص236.--- 36– أبو زكريا يحي المازوني، المصدر السابق، ورقة 159---37– نفسه، ورقة 242 ظ.--- 38– نفسه، ورقة 240 و---39– نفسه. ورقة241 و

40– الونشريسي، للعيار، ج8، ص 254---41– عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي البجائي علمها و ومفتيها أخذ عنه جماعة من علماء بجاية، له للمقدمة للمشهورة وفتاوى توفي سنة 786هـ (احمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص248)

42– أبو زكريا يحي المازوني، المصدر السابق، ورقة 241و---43– عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ص 182

44– عبد المالك بكاي، «الأسرة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 7–10هـ /13–16م»، مجلة العلوم الاجتماعية العدد 17 سبتمبر 2013 URL : http://revues.univ-setif2.dz/index.php?id=749.

45– الونشريسي، للعيار، ج1، ص139---46– أبو زكريا يحي المازوني، المصدر السابق، ورقة 240و

47– هذا المبحث تمت الإشارة إلى جوانب منه في مقالي بعنوان مظاهر التعليم في بوادي المغرب الأوسط في مجلة جيل للبحث العلمي العدد 13 سنة 2015–––48– أبو الفضل قاسم بن سعيد بن محمد العقباني إمام ومفتي تلمساني تولى قضاء تلمسان في صغره ومارس التدريس توفي سنة 854هـ ودفن بجوار قبر الشيخ ابن مرزوق، (أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص 365)

49– أبو زكريا يحي المازوني، المصدر السابق، ورقة 239ظ–––50– القابسي أبو الحسن علي، الرسالة المفضلة، تحقيق احمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986، ص 287–––51– الهادي روجر، الدولة لصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1962، ص389–––52– الجُعل بالضم ما جعل للإنسان من شيء على شيء يفعله، (إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، تحقيق احمد عبد الغفور عطار، ج4، دار العلم للملايين، ط الرابعة، بيروت، لبنان، 1990، ص1656

53– نزيه حماد، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء، دار القلم، دمشق، 2008، ص165

54– أبو زكريا يحي المازوني، المصدر السابق، ورقة 239 ظ.––– 55– من أجل الوقوف على هذه الظاهرة يمكن الرجوع إلى معلمي القرآن، وإلى الذين حفظوا القران على نفس الطريقة ولا سيما خلال فترة الاستعمار وما بعده.–––56– أبو زكريا يحي المازوني، المصدر السابق، ورقة 242 ظ

57– نفسه، ورقة 239 ظ–––58– جاء في الصحاح حذَق الصبي القرآن والعمل يَحْذِق حَذْقًا وحِذَاقًا، وحَذَاقَة وحِذَاقَة إذا مهر فيه؛ وحذَقَ بالكسر حِذْقاً؛ ويقال لليوم الذي يختم فيه القرآن: هذا يوم حِذَاقِهِ؛إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، تحقيق احمد عبد الغفور عطار، ج6، دار العلم للملاين، ط4، بيروت، 1990، ص1456.––– 59– أبو زكريا يحي المازوني، المصدر السابق، ورقة 241و.

60– احمد بن أبي جمعة المغراوي، جامع جوامع الاختصار و التبيان، فيما يعرض للمعلمين و للآباء والصبيان، تحقيق احمد جلولي وأحمد بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ب ت، ص19–––61– الونشريسي، المعيار، ج8، ص148

62– نفس المصدر والصفحة–––63– أبو زكريا يحي المازوني، المصدر السابق، ورقة 241.

الملخص بالإنجليزية:

Summary: One of the most fertile books in the arab history that studied the history of the economic, social and cultural fields were and still are the Nawazil books. They were among the most valuable references, whose tockled cases in the hands of theologians, comprised very important information that where missed by the classical annals. Among those books which included the biggest cases in the middle maghreb were is «Dorrar El-maknouna Fi Nawazil Mazouna» writen by Abou zakariya yahia Ben musa Al-Maghili Al-Mazouni (died in 883/1478) .

This reference shed light on the varions aspects of the life of people during the middle ages, among that the scientific life in the central maghreb, some Nawazil were concerned by scientific situation in the towns and suburbs of central Maghreb in whitch they inficated the societies that took it upon themselves to undertake the educational process. They also analysed the relationship between the teachers and the students parents and the contact that linked them conserning the wage and the duration, and also the teaching strategis and the most important subjects they taught. They also showed the disputes between parents and teachers and other phenomen a singled by the Nawazil such as Thursday's student (a pay know in the central Maghreb).